الحبّ الإلهي والتحقّق الوجودي

إنعام حيدورة*

يحاول البحث التالي الخوض في تحديد الترابط الوجودي بين الحب والخلق، حيث ينتهي إلى القول بحضور الحب الإلهي وسريانه وظهوره في الممكنات التي ارتبطت ببعضها ارتباطاً حكمياً وانتظمت نظماً عقلياً، وذلك بسبب من حكمة الحق تعالى وعنايته الدائمة، فالموجودات بما هي معلولات صدر عنها معلولات أخرى جبل الله في جبلتها نزوعاً وشوقاً نحو عللها، كما جبل في العلل الرأفة والرحمة على المعلولات .. وعليه فإن الحب هو الهوية التي يتلبس بها وجود العالم.

* باحثة في معهد المعارف الحكمية.

الحمد لله الكاشف عن جماله حجاب جلاله والصلاة والسلام على أشرف المخلوقات وحبيب رب العالمين وعلى آله الميامين.

لقد كنتُ قبل اليوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن قلبي إلى دينه دان
لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورةٍ ... فمرعىً لغزلان وديراًلرهبان
وبيتاً لأوثان وكعبةَ طائفٍ ... وألواح توراة ومصحفَ قرآن
أدين بدين الحب أنّىَ توجّهت ... ركائبه، أرسلتُ ديني وإيماني.

لمّا اقتضت الحكمة الإلهيّة الجامعة لجميع الأسماء والصفات بسط مملكة الإيجاد والرحمة، ونشر لواء القدرة والحكمة، بإظهار الممكنات وخلق الخلق و تسخير الأمور وتدبيرها، وكان هذا الأمر من الذات القديمة الأحديّة بغير واسطة بعيدة .

جعل الحقّ على صورته خليفة أعطاه خلع جميع أسمائه وصفاته، ومكنه بإلقاء مقادير الأمور إليه، وجعله إنسانا كاملاً، وغاية المخلوقات.

فما هو سر هذا الإيجاد، وغاية هذا التكوين؟؟ و ما الذي كان قبل الخلق وسبّب الخلق؟؟ وما هي العلاقة بين الماضي والحاضر، بين القديم والحادث، بين الواجب والممكن؟؟ وما هو هذا الأمرالعظيم الذي دعا الباري عز وجل أن يعطي هذا المخلوق أسماءه وصفاته ويدعو الكل للسجود له؟.

وهل يمكن للإنسان بعد أن تسافل في درجات الوجود، أن يرتقي ويتكامل ليرجع إلى ما خلقه الله تعالى لأجله؟؟

الحبّ لغة:

" الحبّ اسم لصفة المودّة. وقيل: إنه مشتقّ من حباب الماء (بفتح الحاء) وهو معظمه، وقيل: هو مأخوذ من الحبّ، والحبّ جمع حبّة، وحبّة القلب ما به قوامه، فسمّي الحبّ حبّاً بإسم محلّه".(١)

والحبّ :"الوداد والمحبّة .وأحبّه فهو محبّ، وهو محبوب،.... والمحبّة أيضاً اسم للحبّ".(٢)

إصطلاحاً :

❖ عرّف ابن عربي الحبّ على "أنه تعلّق خاصّ من تعلقّات الإرادة، لا يكون إلا

بمعدوم غير موجود حين التعلقّ.. وانّ المحبوب على الحقيقة إنما هو معدوم.. فالمحبّ الصادق من انتقل إلى صفة المحبوب، لا من أنزل المحبوب صفته".[٣]

❖ و"الحبّ هو تعلّق خاصّ من ذي الشعور الجميل من حيث هو يميل، بحيث يأبى المحبّ مفارقة المحبوب إذا وجده ويميل إليه إذا فقده"..[٤]

❖ والإلهي :"كلّ اسم إلهي مضافاً إلى البشر، والله هو مجموع حقائق الأسماء الإلهيّة... إنّ كلمة الله في القرآن تطلق على الحقيقة الفاعلة الجامعة لحقائق الأسماء والصفات الحسنى جميعاً: ﴿ **قل أدعوا الله وأدعوا الرحمن أياً مّا تدعوا فله الأسماء الحسنى**﴾

"والأسماء الإلهيّة هي التي يتّصف بها الحقّ من حيث كونه مدبّراً للوجود ومتصرّفاً فيه".[٥]

الحبّ في القرآن الكريم:

إن الحبّ لله عزّ وجلّ ولرسوله فرض، ولن يفترض ما لا وجود له، وكيفَ يفسّرالحبّ بالطّاعة والطّاعة هي من تبع الحبّ وثمرته؟ فلا بدّ وأن يتقدّم الحبّ، وبعد ذلك يطيع المحبّ من أحبّ، من شواهد الشرع في حبّ الله عزّ وجل قوله سبحانه: ﴿**يحبّهم ويحبّونه**﴾[٦]، ﴿**والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله**﴾.[٧]وهو دليل على إثبات الحبّ لله وإثبات التّفاوت فيه وقد جعل النبي (ص) الحب من شروط الإيمان في أخبار كثيرة: "أن يكون الله ورسوله أحبّ إليك ممّا سواهما". [٨] وقوله عندما نظر إلى مصعب بن عمير: "انظروا إلى هذا الرّجل الذي قد نوّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يَغذوانه بأطيب الطعام والشّراب فدعاه حبّ الله وحبّ رسوله إلى ما ترون"[٩]. وعن سيّد الموحّدين (ع): "حبّ الله نار لا يمرّ على شيء إلا احترق".[١٠]

وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿**إنّ الله يحبّ التوابين**﴾ [١١] ﴿**إن الله يحبّ المتطهّرين**﴾[١٢] ﴿**يحبّ الصّابرين**﴾[١٣] ، ﴿**يحبّ المتّقين**﴾[١٤] ، و﴿**يحبّ المتوكّلين**﴾.[١٥]

إنّ القرآن الكريم، كونه مصوناً عن كلّ ألوان الانحراف فله الولاية والحراسة على البشر، واتّباعه من الحاجات الذاتيّة للإنسان. وكلّ من يهتمّ بالفطرة السّليمة ولا يغفل عنها فلا بدّ أن يذوق لذّة العلاقة مع كتاب الله تعالى. وبالتّالي، سيكون الله تعالى وطريقه محبوباً بالنسبة إليه. ﴿**قل إن كنتم تحبّون الله ورسوله اتّبعوني**

يحببكم الله ورسوله﴾.[١٦] القرآن الكريم يعلّم الإنسان أنّ الدّين محبوبه، والله محبوبه، و رسول الله محمّد (ص) بما أنه حبيب الله حبيبه، فعندما يعمل الإنسان بدينه، فانه يطوي سبيل المحبّة باتّباعه صلوات الله عليه وعلى آله ليصل إلى محبوبه الحقيقي بدون قسر. ثمّ إنّ القرآن الكريم يعتبر الإنسان كائناً واعياً مدركا، وأنّ روحه مستوية الخلق في الاعتبار والميل والتوحيد والآثار الحسنة.

﴿حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم﴾.[١٧] فالإنسان محبّ للحقيقة بالفطرة، وهو يميل إلى المعارف والفضائل، وبما أنّ في المحبّة علاقة وجوديّة بين القلب والمعارف الصّحيحة لكونها مقرونة بالإدراك والشّعور، وبما أنّ الإنسان موجود واعٍ وشاعر ومدرك، فإنه يمتلك انجذاباً وميلاً نحو المحبّة للكمال، وهذا معنى كون الدّين فطريّاً، أي أنّه محبّب إلى الإنسان وتميل إليه فطرته. فالنبيّ إبراهيم (ع) طرح التوحيد عن طريق إحياء الفطرة والاستعداد من الميل الباطن.**﴿لا أحبّ الآفلين﴾**، [١٨] فقد طرحه عن طريق المحبّة والاندفاع الداخلي، أي أنه يحبّ فاطر السّموات الذي يكون **﴿وهو معكم أينما كنتم﴾**.[١٩]

كيف يمكن للإنسان أن يجعل نفسه مستعدّة لقبول الحبّ الإلهي بحسب القرآن الكريم؟؟.

الملاحظ في القرآن الكريم أنّ هناك صفات يجب أن تكون موجودة في العبد وهي التي استوجبت هذا الحبّ الإلهي الخاصّ، وأهمّ هذه الصفات الإيمان واتباع الله ورسوله. والمؤمن الحقيقي هو المحبّ الحقيقي الذي يوطدّ علاقته الوجوديّة مع الله تعالى. **﴿والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله﴾**،[٢٠] والمؤمن هو العارف بالله ورسله وكلماته وآياته ويكون مرجعه إلى الله وملكوته وذلك لا يتّفق إلا باستكمال ذاته، وذلك عبر العلوم الحقيقية الدائمة التي لا تتغيّر ولا تنقطع، والعلوم الدائمة لا تكون إلا بالأسباب الدائمة، إذ سبب الشيء لا يكون أنقص منه وجوداً، وكل سبب لا يدوم بدوامه الشيء فهو عرض وغير حقيقي.

وسبب العلوم الدّائمة يكون بإفاضة الله تعالى بذاته أو بتوسط ما هو من ذاته دائماً بدوام ذاته تعالى." **﴿ قل... إتّبعوني يحببكم الله ورسوله﴾**،[٢١] وهذا الاتّباع يكون لله بالذا ت أولاً، ولأنبيائه وأوليائه بالعرض ثانياً. وبما أن المرآة المتعدّدة المحاذية لمرآة أخرى هي بحذاء الشمس تعكس ضوء الشّمس للجميع كذلك حال من

اتّبع رسول الله حقّ المتابعة، بحيث يصبح محبوباً للحق تعالى، مفيضاً عليه من جنّته الدائمة المعارف والعلوم الإلهيّة كما أفاض على حبيبه محمد (ص)، وإن كان هناك فرقٌ بين التابع والمتبوع.

" الحمد لله الذي استنقذنا بك من الهلكة وهدانا بك من الضلالة و نورنا بك من الظلمة".(٢٢)

ما هو السبيل الموصل إلى محبّة الله تعالى ؟

العلّة الغائيّة للخلق:

عن سيّد المرسلين أن الله عز وجل قال : "كنت كنزاً مخفياً، فأحببت ان أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف".(٢٣)

إن الإنسان كان في مخبأ الإمكان وقد أخرجه تعالى من هذا المخبأ إلى عالم البرزخ نزولاً إلى عالم الأشباح إلى الملكوت الأعلى والأسفل من النّفوس والمواد، إلى أن يبلغ أسفل السّافلين حتى الهيّولى وهي نهاية تدبير الأمر، **﴿يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض﴾**.(٢٤)

الله تعالى يشير إلى كونه غيب الغيوب والمعبّر عنه بالكنز المخفيّ: والذي هو عبارة عن باطن الهويّة الأزليّة المنزّهة عن الحد والرّسم. و"أحببت" إشارة إلى ظهور الذّات للذّات، "كنت كنزاً " هي كناية عنه، وليس عن مطلق غيرية عين أو أثر، وحقيقة الوجود أن نفس هذه الحقيقة تكون العشق الذي يبرز في بعض الأحيان بظهور المعشوق المتعيّن، ويبرز أحياناً بصورة العاشق، ويكون منزّهاً في مقام الغيب عن تعيّن العاشق والمعشوق، بل يكون العاشق الصّرف الذي يكون منزّهاً عن قيد الإطلاق والتقيّد. وفي ذلك المقام يفنى العاشق في جمال المعشوق، ويكون الإثنان كلاهما مستجنّين في حقيقة العشق، وما من خبر عن التعّين فإنه : "تعالى العشق عن همم الرجال".(٢٥)

وقوله: "أحببت أن أعرف فخلقت الخلق": ذلك معناه أن الحبّ الإلهي هو سرّ هذا الوجود وهذا الخلق، فقوله تعالى : "أحببت أن أعرف" إشارة إلى ظهور الحبّ والعشق وتعيّنه في مراتب الوجود.

" وتلك الصّور فائضة عن الذّات الإلهيّة بالفيض الأقدس والتجلّي الأوّل بواسطة

الحب الذّاتي وطلب مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو ظهورها وكمالها. ومفاتح الغيب التّي هي الأسماء في الحضرة الواحدية، وطلب المفاتح من الهويّة الغيبيّة بالحبّ الذّاتي الغيبي الّذي هو تعيّن الوجهة الغيبيّة للفيض الأقدس، وما به الطلب هو الفيض الأقدس. إذاً فإنّ تجلّي الذّات بتعين الاسم الأوّل والأحد بالفيض الأقدس لطلب مفاتح الغيب الذي هو مقام الكنزيّة المختفي - وعنده مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو(٢٦).

من هنا فإنّ العلاقة بين الإنسان والمحبّة هي علاقة حقيقيّة لأنه لا بدّ من ربط وجودي حقيقي بين المعلول والعلّة الغائيّة. وهذا الرّبط هو الوجود الشّهودي والعلمي، وذلك أن الإنسان كائنٌ ذو شعور وإدراك. وهو يكون بالحبّ الذّاتي للنفس الإنسانيّة لعلّتها الغائيّة.

مراتب الحب الإلهي:

المرتبة الأولى: ظهور الذّات للذّات، وشهود نفسه بنفسه والمعبّر عنه بالكمال الذّاتي، بحيث يكون في هذه المرتبة تمام وكمال الحبّ الذاتيّين فيكون أشدّ محبّ ومبتهج بذاته هو تعالى. وهي لا تعيّن لها في هذه المرتبة أصلاً.

المرتبة الثانية: ظهور الذّات في الأسماء والصّفات. " وفي هذه المرتبه أول التّعين وهو التّعين بالأسماء الذّاتية في الحضرة الأحدية والّذي هو مبدأ التجلّي الأسمائي. إذ إنّه فيه تقع التجلّيات الأسمائيّة وذلك يكون في الحضرة العلميّة بتعيّن كلّ اسم بمقامه الخاصّ به. وهذا التعيّن قد يكون وجوديّاً كالتعيّن بالأسماء الجماليّة، وقد يكون عدمياً كالتّعين بالأسماء الجلاليّة، وقد يكون فردياً بسيطاً، وقد يكون جمعيّاً وقد لا يكون كذلك، ومن له أحديّة جميع التعيّنات هو الاسم الأعظم والإنسان الكامل". " ويكون التجلّي للأعيان الثّابتة في الحضرة الواحديّة، وذلك بالفيض الأقدس والمتجلّي هو الذّات المقدّسة باعتبار التعيُّن الغيبي الأحدي من الأسماء المستأثرة في الهويّة الغيبيّة" .(٢٧)

المرتبة الثالثة: سريان العشق والظهور اللّذين بشرط لا في الممكنات . وقد عبّر عنها الحكماء بظهور هويّة الحبّ الممكنة وسريانها في كسوة الممكنات، التي ارتبطت

ببعضها ربطاً حكمياً وانتظمت نظماً عقليّاً وذلك بحكمته تعالى وعنايته الدائمة، و الموجودات لمّا كان بعضها معلولات صدر عنها معلولات أخر، جعل الله تعالى في جبّلتها نزوعاً وشوقاً نحو عللها، كما جعل أيضاً في طبيعة العلل الرّأفة والرّحمة على المعلولات. والظّهور في هذه المرتبة هو الفيض المقّدس والمتجلّي له الوجودات والماهيّات التي هي الأعيان الخارجيّة.

من هنا فإنّ حقيقة الوجود المطلقة والتي هي عبارة عن الحبّ والعشق بدون تعيّن، هي مصدر اشتقاق المحبوب والمحبّ، وبقوله: " كنت كنزاً مخفيّاً، " فهو يشير إلى أن غيب الذات هو المقام المنزّه عن كل التعيّنات، وكل الجهات و"كنت" هو خبر عن تعيّن مسبوق بالإطلاق والحب والعشق، "فأحببت" يوحي بالميل الإلهي، فالحبّ والعشق هما الرابط بين البطون والظهور وبين الحديث والقديم وبين الخالق والمخلوق.

" و الوجود حقيقة واحدة في الكلّ متفاوتة بالأتمّ والأنقص، وأنّ المعلول من سنخ حقيقة العلّة، والعلّة تمام المعلول، وقد ثبت أيضاً أنّ الوجود خير لذيذ، فكلّ واحد يعشق ذاته وكمال ذاته لكن كمال ذاته يتمّ بما هو بعينه علّته ومفيض وجوده، فالعلّة المفيدة وإن لم تكن قاصدة لمعلولها ولا ملتفتة له أيضاً لعلوّ ذاتها عن ذات المعلول، لكنها لا محالة عاشقة لنفسها مريدة لذاتها، ذاتها بعينها هي كمال المعلول وتمامها، والمعلول من لوازم هذه التماميّة التي هي بعينها ذات العلة، فلا جعل ذلك ينحفظ كالّمعلول بعشق علّته وينتظم كلّ سافل بعشق ما فوقه، فلو لم يكن بين العالي والسافل هذا النّحو من الارتباط لم يتحفظ الموجودات ولم يبق النّظام على هذا النّحو من التّمام".(٢٨)

مظاهر المحبّة:

بما أن المحبّة هي ميل وجودي ولها درجات متفاوتة في الشدّة والضّعف كما هي حقيقة الوجود لها ثلاثة مستويات في الظّهور:

أولا": الظّهور من حيث المرتبة الوجوديّة، فالحبّ لما كان تابعاً للمعرفة والإدراك، إنقسم بحسب المدركات والحواسّ، فلكلّ حاسّة لذة خاصّة وإدراك خاصّ، وبسبب تلك اللّذة تكون محبوبة عند الطّبع السّليم، حتى قال (ص): " حُبِّبَ إليّ من دنياكم

ثلاث: الطّيب والنّساء وجُعلت قرّة عيني في الصّلاة"[٢٩]، فسمّي الطّيب محبوباً وسميّت النّساء محبوبات، وجعلت الصّلاة أبلغ المحبوبات، مع أنه لا حظَّ للحواس الخمس فيه، وإنما الحّظ هو للقلب، وذلك إشارة إلى أن لذّات الحواس من أقسام المحبّة. والتي منها المحبّة النّفسية التي تتجلّى في النّكاح بما فيها من حكمة بقاء النّوع، وهذه المحبة والعشق منشؤها استحسان شمائل المحبوب، ولا يخلو منه أي إنسان له قلب لطيف ونفس رحيمة في أوقات عمره.

والعشق الإنساني ينقسم إلى: حقيقي ومجازي، وليس هناك متّسع للكلام حول هذه الأقسام، وإنّما الإشارة فقط إلى أنّ هذا العشق "الإنسانيّ إذا لم يكن مبدؤه إفراط الشهوة الحيوانيّة، بل إستحسان شمائل المعشوق وجودة تركيبه واعتدال مزاجه وحسن أخلاقه، وتناسب حركاته وأفعاله، وغنجه ودلاله. معدود من جملة الفضائل وهو يرقّق القلب ويذكّي الذّهن وينبّه النّفس على إدراك الأمور الشّريفة، ولأجل ذلك أمر المشائخ مريديهم في الابتداء بالعشق وقيل : "العشق العفيف سبب في تلطيف النّفس وتنوير القلب"، وفي الأخبار "إن الله جميل يحبّ الجمال" وقيل: "من عشق وعفّ وكتم ومات، مات شهيداً".[٣٠]

وهذا العشق لا بدّ من استعماله في أواسط السّلوك العرفانيّ وفي حال تدقيق النّفس وتنبيهها عن الغفلة. وأما عند استكمال النّفس بالعلوم المتّصلة بعالم القدس، فعليه أن يعبر من هذا العشق ويطويه إلى العالم الحقيقي. ولا يمكن أن يخلق الله تعالى شيئاً في النفس الإنسانيّة إلا بحكمة جليلة وغاية عظيمة".[٣١]

ثانياً: الظّهور الإرادي. وذلك بطلب العلوم الحقيقيّة وتعلّمها من جهة ، والعمل بها وبالمجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النّفس وتهذيب الأخلاق من جهة أخرى، "المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز و جل". وبذلك يكون مؤهلاً لطيّ مقامات القرب والحبّ الإلهي.

ثالثاً: الظّهور في مرتبة التولي السّامية، والمؤمن الخاصّ لديه تولٍّ خاصّ وهذا الأمر دقيق في تولّي الحقّ تعالى، كذلك في التبري من الباطل.

وإطلاق المحبّة على الله تعالى هي حقيقة وليس مجازاً، فالله محبّ ومحبوب وهذه الألفاظ تستعمل بشأن الله تعالى بمعانيها الحقيقية.

وبما أن المحبّة لها درجات مختلفة ومتفاوتة في الشّدّة والضّعف، فإنّ درجتها

المجرّدة عن كلّ القشور الماديّة هي لله تعالى.

مستلزمات الحب الإلهي:

"لما علم الزهّاد والعبّاد الّذين لا علم لهم بالحقائق ولا معرفة أنّ علوّ المكانة، إنّما هو بحسب العلم والكشف الحقيقي، وخافت نفوسهم وحسبوا أن لا نصيب لهم من العلوّ، ذكر الحق في كلامه بعد قوله: ﴿**والله معكم ولن يتركم**﴾، أي لا ينقصكم الحقّ أعمالكم فيكون لكم علوّ المكان بحسب أعمالكم، وإنما علوّ المكانة للعلم وعلوّ المكان للعمل، لأنّ المكانة للروح كما أن المكان للجسم، والعلم روح العمل والعمل جسده، فاقتضى كل منهما بحسب المناسبة ما يشبهه ويماثله فعلوّ المكانة للعالم وعلوّ المكان للعامل ومن جمع بينهما فله العلّوان".(٣٢)

لمّا كانت الحكمة الإلهيّة وتكميل القوّة النظريّة بتحصيل العلوم والمعارف من أفضل الوسائل لسعادة الإنسان، وذلك بالعلم بالله وصفاته وملكه وملكوته واليوم الآخر، التي بها يكون الإنسان سالكاً سبيل المحبّة الحقيقية ومتوجهاً شطر الحبيب الأوّل، ومخلّصاً من سجن الدّنيا وتعلّقه بها إلى جنّه معرفة الرحمن ومجاورته عالماً فانياً عن ذاته، مستغرقاً في شهود جمال الحبيب وجلاله ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾، ولكن حتى يعرف دينه وحبيبه لا بدّ في البداية من معرفة سرّ نفسه ذاتاً وصفات لأنّ؛ "من عرف نفسه فقد عرف ربّه". والإنسان من خلال هذه النّفس يرتقي إلى خالقه ويصير من الملائكة المقربين شاهداً للجمال الأحدي.

وليس المراد من الحكمة هي الحكمة المتعارف عليها بين الناس من الفلسفة والعرفان وغيره، وإنما المراد منها الحكمة التي تستعدّ النّفس فيها للارتقاء إلى الملائكة، والتي هي غاية لا يؤتي مثلها إلا من قبل الله تعالى كما في قوله:﴿**يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً**﴾(٣٣)، وهي الحكمة المعبّر عنها تارة بالقرآن، وتارة بالنور، وعند العرفاء بالعقل البسيط، وهي من فضل الله وكمال ذاته، ورشحات وجوده وهبها الله لمن اختاره واصطفاه من عباده ومحبوبيه، لا ينالها أحد من الخلق إلا بعد تجرّده عن الدنيا وعن نفسه بالتّقوى والورع والزهد الحقيقي، والانخراط في سلك المقربين من ملائكته وعباده الصالحين، حتى يعلم الله من لدنه علماً ويؤتيه حكمة وخيراً ويحييه حياة طيبة ويجعل له نوراً يمشي به

في ظلمات الدنيا ﴿أومن كان ميّتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾.[٣٤]

ومعرفة الله تعالى على ثلاث مراتب:

١- معرفة الذات.

٢- معرفة الصفات.

٣- معرفة الأفعال.

وأما الذاّت، معرفتها صعبة بعيدة عن التفكير والكلام، إذ إنّ حقيقة الواجب هويّة بسيطة وغير متناهية في الوجود، ولا يمكن الإشارة إليها لا باسم ولا رسم وحقيقته عين التشخّص، ولا دليل عليه بل هو الدالّ على كلّ شيء.

"يا من دل على ذاته بذاته".[٣٥]

ومنهم من وصل إلى الله تعالى ومعرفته بمحض العناية و كمال المحّبة وهؤلاء من الملائكة المقرّبين الذين شربوا من شراب المحبّة و الشوق، وبكأس العشق والعناية والإرادة الذاتية، وإليهم أشار بقوله: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾.[٣٦]

"إن لله تعالى شراباً لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتّصلوا، وإذا اتّصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم".[٣٧] "وهذا السّكر موجب للمشاهدة والذّوق والتحيّر في جمال المعشوق والمعبّر عنه بالسّير في الله، دون السّير " لله" و "بالله"، فإنهما منقطعان غير باقيين بدون الأوّل، وحيث إن موسى «ع» كان في مقام الثّاني و "سكر السّلوك بالله" قال: ﴿إن هي إلا فتنتك﴾،[٣٨] وحيث كان نبيّنا (ص) في المقام الأوّل "وسكر السّير في الله" قال: " أللهم زدني فيك تحيُّراً"[٣٩]. وكذلك الشيخ أبو الحسن الخرقاني حيث كان في المقام الثّاني وسكر السلوك قال: "لو شربت قطرة أخرى لذهلت عن الوجود ...". وقول الشامي:

"شربت الحبّ كأساً بعد كأس فما نفد الشّراب ولا رويت" [٤٠]

وأمّا معرفة الصّفات فهناك مجال للغوص فيها وإن كان في معرفتها شيء من الغموض، لكونها من المفاهيم العقليّة التي يقع فيها الاشتراك بينه تعالى وبين مخلوقاته، إلا أنّ ذاته تعالى هي مصداقيّتها وليس غيره، ﴿وهو العزيز الحكيم﴾.[٤١]

وأما معرفة الأفعال، فالمجال فيها متّسع للجميع وهي بحر عميق وواسع، كلّ

يسبح فيه بقدر قوّته، ولا يُنال ذلك إلا بفضله.

إذن فمعرفة الله هي السّبيل الأوّل لسلوك المحبّة الإلهيّة. فما هي حقيقة المعرفة؟ وما هو السّبيل الثّاني لهذا السّلوك؟

علاقة المحبّة بالإخلاص و الالتزام بأوامر الحبيب:

وقد ورد عن المعصوم :"فإن أردتَ العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبوديّة، واطلب العلم باستعماله واستفهم الله يفهمك".(٤٢)

وحقيقة المعرفة هي العبادة **﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون﴾**، وهذه المعرفة والعبادة عبارة عن موجود حقيقي، كما أنّ الإنسان موجود حقيقي وليس اعتبارياً، من هنا كلّما ازداد الإنسان إيماناً، ارتفع عن مستوى عالم المادة ووصل إلى عالم ما وراء الطبيعة، وازداد حبّاً وشوقاً لله تعالى، **﴿والذين آمنوا أشدّ حبّاً لله﴾**.

الحبّ والقرب الإلهي:

إن الارتباط بالأحكام الشرعيّة هو علاقة حبيّة بين العبد والرّب، لأنها منسجمة مع تكوين الإنسان وفطرته، ولا يمكن تصوّر المعارف الدينيّة ثقيلة على النّفس، وذلك لأنّ رأس مال معرفة الله وعبادته قد أودع في باطن الإنسان، فعليه أن يقوّي العلاقة بالله تعالى، ومقدار ارتباطه بالله تعالى بمقدار المحبّة، لأن المحبّ ينجذب نحو المحبوب وآثار المحبوب تتنزّل في المحبّ. وبعد أن يتذّوق حلاوة القرب والجذب لا يمكن له أن يلتفت إلى غير معبوده، ولا تكون سعادته إلا بالوصال وذلك من خلال العبادات والطاعات، التي من خلالها يطوي السّالك المنازل ويهجر الأغيار: "إلهي .....أنت الّذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبّائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك ...."، ويخرق الحجب الظّلمانية والنّورانية ويقطع آماله من كل ما سوى الله تعالى. " إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليك بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها....".

وبعد هذه المراحل التي يجتازها ،" ينسلخ عن نفسه ويحصل له المحو الكليّ وتظهر له حالة الصّعق، ويصير الحقّ المتعالي فيه فعّالا؛ حيث يسمع بسمع الحقّ ويبصر بعين الحقّ ويبطش بيد قدرة الحقّ وينطق بلسان الحقّ، ويرى الحقّ ولا يرى

غيره، ويتكلّم بالحقّ دون غيره فيكون تجاه غير الحقّ أعمى و أصمّ و أبكم و تجاه الحقّ بصيراً وسميعاً وناطقاً.

ولا يحصل هذا المقام إلا مع الجذب الرّبوبي وجذوة نار العشق، حيث يتقرّب بها على الحق بصورة مستمرة، ويسعف بواسطة الجذبة الرّبوبية التي تحصل إثر حبّ الذات المقدس، حتى لا ينزلق بوادي الحيرة، ولا يبتلى بالشطحات وغيرها التي تكون من رواسب الأنانية. وقد أشير إلى هذين الأمرين في قوله:

" ما يتقرّب إليّ عبد من عبادي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه، وإنه ليتقرّب إليّ بالنافلة، حتّى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته".

فيوجب التّقرب بالنّوافل، الفناء الكليّ ..... والصّعق التّام، قد تشمله العناية الأزليّة و يرجع إلى وعيه .... وتنكشف له سبحات الجمال والجلال، وفي هذه الحالة من الصّحو تتجلى في مرآة الذات الصّفات وفيها تنكشف الأعيان الثابتة ولوازمها ... وبعد أن يتحقّق الصّحو بعد المحو، يرى الحقّ سبحانه في مرآة جماله... وفي هذه الصّورة يرى به الحقّ المتعالي ويسمع ويبطش، "فالحقّ يسمع به ويبصر به" عليّ عين الله وسمع الله و جنب الله "(٤٣).

وفي هذا المقام يكون التقرُّب بالفرائض، فالسالك من خلال المواظبة على النّوافل بعد إحكام الفرائض، تظهر المناسبة الموجودة بينه وبين ربه ظهوراً تامًا، فتظهر فيه الصّفات الرّبوبية والأخلاق الإلهيّة كالعلم والبرّ والإحسان، فبالتخلّق والتشبّه يصير الإنسان مناسباً لله تعالى، فيحصل له من اللّذة والبهجة ما تضمحلّ عنده كل لذّة و بهجة. وهذه اللّذة و المحبّة نهاية درجات العشق، وغاية الكمال المتصوّرة لنوع الانسان... فما بعدها مقام إلا وهو ثمرة من ثمراتها، كالأنس و الرّضا والتوحيد، ولا قبلها مقام إلا وهو مقدّمة من مقدّماتها، كالصّبر والزّهد وسائر المقامات، وهذا العشق هو الّذي أفرط العرفاء وأرباب الذّوق في مدحه، وصرّحوا بأنّه غاية الاتحاد والكمال المطلق. ولا كمال إلا هو ولا سعادة إلا به.

وفي الحديث الشريف: "من أخلص لله أربعين صباحاً، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"(٤٤). وظهور عيون الحكمة الّتي هي العلوم الحقيقيّة إنمّا هي إشارة

إلى رزق النّفوس القدسيّة ﴿**بل أحياءٌ عند ربّهم يُرزقون**﴾[٤٥]. والوصول إلى هذا المحبوب لا يكون إلا بمقدار الاستعداد الإمكاني، وأي ارتباط مادّي لا يمكن له أن يجتمع مع الحياة الأبديّة. لأن المادّة والجسميّة من العالم المادّي، وكل ماديّ يزول ولا يبقى إلا مظاهر الصّفات والأسماء الإلهيّة ﴿**كل شيء هالكٌ إلا وجهه**﴾[٤٦].

وينبوع الحكمة إشارة إلى مبدأ جميع الفيوضات، ومنبع جميع الكمالات، وهي من مراتب العالم العليّة المظهرة للأنوار الإلهيّة.

وبما أنّ كل ماديّ هالك ولا يبقى إلا الحياة الأبديّة وهما لا يجتمعان، فلا بدّ من قطع كلّ علاقة وارتباط بالعالم الماديّ. وقد ورد في الحديث القدسي: "من طلبني وجدني ومن وجدني عرفني ومن عرفني أحبّني ومن أحبّني عشقني ومن عشقني عشقته ومن عشقته قتلته ومن قتلته علي ديتّه ..وأنا ديّته" [٤٧]. من هنا فإنّ الوصول إلى الله تعالى متوقّف على القتل في سبيل الله، فما لم يُقتل العبد في سبيل الله فإنّه لا يدخل عوالم الإخلاص والحبّ لله تعالى.

والقتل هو قطع علاقة الرّوح عن البدن، وهو يتمّ على طريقتين:

❖ الأوّل: القتل الظّاهر، ويكون القاتل هو جيش الكفر.

❖ الثّاني: القتل الباطن، ويكون القاتل فيها جنود الرّحمة والإيمان، ﴿**والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا**﴾ [٤٨]. وكلّما ارتفع الإنسان مقاماً عليه طيّه والإنتقال إلى مقام أعلى بحيث يقتل الأدنى بسيف الأعلى، "إن للقرآن ظهراً وبطناً، ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن"[٤٩].

الخاتمة:

إنّ إشارة القرآن الكريم إلى محبّة الله للمتّقين تنبع من الإرشاد الإلهي إلى سبيل العودة إلى أعلى عليين بعد أن تنزّل الإنسان وأصبح في أسفل السافلين.

وهذه العودة الإنسانيّة لا تكون إلا بجذبات العناية الإلهية، وذلك من حيث وقع النّزول ماراً على المنازل والمقامات، حتّى يصل إلى الإنسان الكامل الذي هو روح العالم ومظهر اسم الله. وقد جمع الله تعالى في الإنسان قوى العالم وأوجده بعد وجود الأشياء التي جمعت فيه.

﴿**الذي أحسن كلّ شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين**﴾.

وقد أوجد فيه بسائط العالم ومركباته وروحانيّاته ومبدعاته ومكوّناته، فالإنسان من حيث جمع فيه قوى العالم هو كالمختصر من الكتاب.

والعودة إلى المبدأ تستوجب عدّة أمور:

١- تطهير الباطن من الخبائث والرّذائل وقطع علائق الدّنيا وإخراج حبّ ما سوى الله من القلب، وكمال الحبّ لله بأن يحبّ الله عز وجلّ بكل قلبه ولا يلتفت إلى غيره، فبقدر ما يشتغل بحبه عن غيره بقدر ما يفيض حبه تعالى﴿**قل الله ثمّ ذرهم**﴾[٥٠]، "إلهي تعرّفت إليّ في كلّ شيء فما جهلك شيء"، "يا داوود إنّك تزعم أنّك تحبني، فإن كنت تحبّني فأخرج حبّ الدنيا من قلبك، فإن حبيّ وحبّها لا يجتمعان في قلب"[٥١].

٢- المعرفة خاصّية الإنسان المدرك، وهي أوّل سبيل لعودة الإنسان إلى ما خلق لأجله، لكونه غاية سلسلة عالم الأكوان، وخليفة الله تعالى لكونه أبدع ما في هذا العالم، هو سبيل المعرفة إذ لا بدّ قبل تصدّر المحبّة أن يكون هناك معرفة، لا يحبّ الإنسان من لا يعرفه. ومعرفة الله تعالى من أعظم اللّذات وهي غاية السالكين. فلذّة رؤية المعشوق من وراء ستر أو حجاب لا يكون كاللّذة بإدراكه عن قرب من غير ستر ولا ظلام "يا أقرب من كلّ قريب"[٥٢].

٣- كلّ عمل يقرّب إلى الله تعالى هو طريق لثبوت المحبّة، وبما أن الله يرى العبادة عاملاً للتقرّب، فأفضل طريق للوصول إلى الحبّ الإلهي وتحقيق الوجود الخارجي له، هو إثبات الأعمال بقصد القربى. والعبادة هي حقيقة المعرفة فالإنسان عندما يتيقّن بوجود الله تعالى مع كل أوصافه المطلقة، ويتيقّن بالرّبوبيّة المطلقة لله تعالى، فإنه لا يترك موضعاً لتصوّر تدبير وربوبيّة الآخرين. فهو في هذه الحالة ليس فقط يسلب الملكيّات الاعتباريّة من نفسه ويراها ملكاً لله تعالى، بل يرى نفسه و كل عباداته وشؤونه ملكاً لله تعالى. "يا أبا ذرّ اعبد الله كأنك تراه".

وهذه العبادة على أساس المعرفة الشّهوديّة، "فإن كنت لا تراه فإنّه يراك"، فأنت إمّا أن تكون شاهداً أو مشهوداً. إنّ كلّ عمل يشترط التقرّب في صحته كالزّكاة و... فهذا العمل يكون قربانه، أي يقترب بهذا العمل من الله تعالى. والقرب الحاصل من الفرائض أكثر من التقرّب الحاصل من النوافل للسالك.

وبما أن إتيان الفرائض موجب للقرب فكذلك إتيان النّوافل، لأنّ التقرّب بالنوافل يكون سبباً لصفاء الباطن وارتفاع الحجاب عن قلب العبد. وليس كل الّذين يقومون بالأعمال الواجبة والمستحبّة محبوبين للحقّ، وإنمّا قليل منهم سيتابعون سير النّوافل والفرائض إلى أن يصلوا إلى مقام المحبوبيّة وميزتهم أنّهم يأتون بها حباً بالله "لا شوقاً إلى جنّته..... ولا خوفاً من ناره"(٥٣).

إنّ الله سبحانه غير محدود، لذا هو أقرب إلى كل شيء من سائر الأشياء حتى من نفسها، فطريق الوصول الوحيد هو شهود الحق، والحجاب الوحيد هو رؤية غيره، والحل الوحيد لرفع الحجاب هو الانقطاع إليه بنحو لا يكون سواه محلاً للتّوجه الحسّي والخياليّ والوهمي والعقليّ، هذا من ناّحية الإدراك الحصولي. وكذلك لا يكون هنّاك شيء محلّ للرؤية الشهوديّة من ناحية العلم الحضوري، إلا أن يكون بعنوان أنّه وجه الله.

وجميع الكمالات الوجوديّة لا ظهور لها أمام الله، وإنما يتضح أن الوصف الكمالي لنفس الوجود الصرف هو الّذي يظهر في زجاجة روح أولياء الله تعالى.

"قد ذاقوا حلاوة معرفته تعالى وشربوا من كأس الرويّة من محبّته، وتمكنت من سويداء قلوبهم وشيحة خيفته"(٥٤).

وهذه المحبّة تكون من المحبوب الأول بمحض العناية الإلهية والهداية الحقّة. "يا أحبّ من كلّ حبيب"، فهو أحبّ للكلّ كما هو مقتضى الإطلاق، فلأن كل كمال وإفضال لما كان عكس كماله وإفضاله، ومحبوبيتها باعتبار وجهها إلى الله، ترجع محبوبيتّها إلى محبوبيّته، فالله يرجع عواقب الثناء كما ورد عن المعصوم، ولكن لا يستشعر بذلك إلا الخواص"(٥٥).

وبما أنّ الوجود واحد، والمحبّة أمر وجوديّ، فكل حبّ يرجع إلى الحبيب الأول. والحبّ الإلهي هو سرّ الوجود والغاية النهائيّة للخلق، فهو المبدأ وهو العلّة الغائيّة.

"أيكون لغيرك من الظّهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك،

عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً"(٥٦).

وأخيراً

"اللهمّ اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، جباههم ساجدة لعظمتك وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك وقلوبهم متعلقة بمحبتك، وأفئدتهم منخلعة من مهابتك، يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة، يا منى قلوب المشتاقين ويا غاية آمال المحبين، أسالك حبّك وحبّ من يحبّك وحبّ كل عمل يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحب إلي مما سواك ..."(٥٧).

والحمد لله رب العالمين

الهوامش:

(١) الصوفي، المعجم، الحكيم، سعاد، عن الرسالة القشيرية ١٤٤.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هجري، ص١١.

(٣) م. س .

(٤) الأسفار الأربعة، الشيرازي، صدر المتألهين، الجزء(٢)، السفر (٣)، ص١٥٢

(٥) م.س.

(٦) المائدة، الآية ٥٤ .

(٧) البقرة، الآية ١٦٥ .

(٨) محمد ري شهري، ميزان الحكمة، دار الحديث، ط ١،ج١، ص٢٠١ .محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، بيروت ، دار الوفاء، ط٢، ١٩٨٣، ج ٢٨، وص ٣٥، وج ٣٠ ص ٢٧٣ . أحمد بن حنبل، مسند أحمد، بيروت دار صادر، ج٣، ص ١٠٣، و ص٢٠٧ ، و ٢٧٨، محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، بيروت دار الفكر،ج ١، ص ١٠.

(٩) المحقق النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل ومستنبط الوسائل ومستنبط المسائل، مؤسسة اهل البيت «ع» لإحياء التراث، ط٢ ، ط ٢، ١٤٠٨ هـ، ج٣، ص٢٥٧.

(١٠) مصباح الشريعة، المنسوب للإمام الصادق بيروت مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٠هـ،

ط١، ص١٩٢، المجلسي بحار الأنوار، ج٦٧، ص٢٣.

(١١) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

(١٢) سورة البقرة، الآية ٢٢٢.

(١٣) سورة آل عمران، الآية ١٥٩ .

(١٤) سورة التوبة آية ٧.

(١٥) سورة آل عمران، الآية ١٥٩ .

(١٦) سورة آل عمران، الآية ٣١ .

(١٧) سورة الحجرات، الآية ٧.

(١٨) سورة الأنعام، الآية ٧٦.

(١٩) سورة الحديد، الآية٤ .

(٢٠) سورة البقرة، الآية ١٦٥.

(٢١) سورة آل عمران، الآية ٣١ .

(٢٢) مفاتيح الجنان زيارة الرسول (ص).

(٢٣) المحقق الكركي، رسائل الكركي، تحقيق محمد حسون، قم، مكتبة السيد المرعشي، ١٤٠٩ هـ ، ج٢، ص ١٥٩

(٢٤) سورة السجدة، الآية ٥ .

(٢٥) مصباح الهداية، مقدمتان، الإشتياني، دار الهادي، طبعة أولى،١٤٢١ هجري/٢٠٠١م، ص٧٣.

(٢٦) سورة الأنعام، الآية

(٢٧) بتصرف، فصوص الحكم، تعليقة الإمام الخميني، دار المحجة.

(٢٨) م.س.

(٢٩) م .س. الأسفار الأربعة، ص ١٥٩وص٢٦٤ .

(٣٠) الفيض الكاشاني، التحفة السنية، إيران، كتابخانة آستانة قدس، ميكروفيلم، ص ٦١، البحراني، الحدائق الناضرة، تحقيق محمد تقي الإيرواني، قم، الناشر جماعة المدرسين، ج ١، ص٢٦٤ ، والمحقق الشريف الرضي، المجازات النبوية، تحقيق طه الزيني، قم، مكتبة بصيرتي، ص٢٠١، الحر العاملي، تفصيل وسائل الشيعة، قم، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث/ ١٤١٤هـ، ط ٢، ج١٥، ص١٦٢.

(٣١) م.س.الأسفار الأربعة، ص١٧٣.

(٣٢) سرح العيون، شرح العيون، آملي حسن زاده ، ص٧٢٩.

(٣٣) سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

(٣٤) سورة الأنعام، الآية ١٣٢ .

(٣٥) مفاتيح الجنان، دعاء الصباح.

(٣٦) سورة الإنسان، الآية٢١ .

(٣٧) شرح الأسماءالحسنى، السبزواري، هادي، انتشارات دانكشاه تهران تيرماء ,٥٧٣١جاب دوم. ص٥٣٤.

(٣٨) سورة الأعراف، الآية ١٥٥.

(٣٩) بحار الأنوار ، ج٣٠، ص ٤٢١.

(٤٠) م.س، شرح الأسماء الحسنى، ص٥٣٥.

(٤١) سورة البقرة، الآية ١٦٥ .

(٤٢) بحار الأنوار، ج٣٥، ص٤٢٥.

(٤٣) الأربعون حديثا"، دار التعارف، بيروت لبنان، ص:٥٣٨-٥٣٨، بتصرّف، ١٤١١/م١٩٤١.

(٤٤) أصول الكافي، الكليني، ج٢، ص ١٦.

(٤٥) سورة آل عمران، آية١٦٩.

(٤٦) سورة القصص، الآية ٨٩ .

(٤٧) راجع: حاشية في فضائل سلمان، نفس الرحمان، الميرزا حسين النوري الطبرسي.

(٤٨) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

(٤٩) حاشية تحفة الملوك، بحر العلوم، محمد مهدي، بيروت، دار البهجة، الطبعة الأولى.

(٥٠) سورة الأنعام ، الآية ٦١.

(٥١) دعاء عرفة، مفاتيح الجنان.

(٥٢) الكاشاني محسن، المحجة البيضاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣ م، جزء ٨ ، صفحة ٦١.

(٥٣) مفاتيح الجنان، دعاء الجوشن.

(٥٤) عن أبي عبد الله "إنّ العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله خوفاً، فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عز وجل له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة". الكافي، أصول، الكليني، ص: ٦٨، ج:٢.

(٥٥) نهج البلاغة، خطبة ٩٠.

(٥٦) م.س، شرح الأسماء .

(٥٧) م.س، دعاء عرفة.

(٥٨) م.س، مناجاة المحبين.